خطبة صلاة الجمعة 5/ 7/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الأدب مع الخلق)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9، 10]، قال ابن كثير في تفسيره: (قد أفلح من زكّى نفسه وطهّرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل).

أخرج الترمذي بإسناده عن سعيد بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«ما نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا من نَحْلٍ أفضلَ من أدبٍ حَسَنٍ»**.

وأخرج عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزانِ المؤمِنِ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ يبْغضُ الفَاحِشَ البَذيء»**.

عنوان خطبة اليوم: الأدب مع الخلق

أيها الإخوة:

في السير إلى الله تعالى يمر السالكون بمنازل، منزلةٍ تلو الأخرى، تجتمع حينا وتتتابع حينا آخر، بعض هذه المنازل يمر بها السالك فيقطعها ثم يتجاوزها إلى غيرها، وبعضها يمر بها ويصطحبها معه طيلة سيره وسلوكه، ومن منازل السائرين التي يصطحبها معه طيلة سيره وسلوكه ولو تركها لرُدَّ من حيث جاء (منزلة الأدب).

قال الحسن البصري: "كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنتين ثمّ السنتين".

وقال سفيان الثوري: "كان الرجل لا يطلب العلم حتى يتأدب ويتعبد قبل ذلك".

وقال مالك بن أنس: "كانت أمي تُعَمِّمُني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة الرأي فتعلّم من أدبه قبل عِلمه".

وقال رويم لابنه: "يا بني اجعل عملك ملحاً، وأدبك دقيقاً".

الْأَدَبِ: هُوَ إِصْلَاحِ الأقوال والأفعال والأحوال وفق ما جاء في القرآن والسنة وتعارفه أولو الألباب.

والأدب أربعة فأدب مع الله وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب مع الخلق وأدب مع النفس، ولئن تحدثت الخطبتان الماضيتان عن الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فإن عنوان خطبة اليوم: **الأدب مع الخلق**.

أيها الإخوة:

لكل مرتبة من مراتب الخلق أدب خاص معها، فمع الوالدين: أدب، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به، ومع الأصحاب أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبك مع أصحابك وذوي أنسك، ومع الضيف أدب غيرُ أدبك مع أهل بيتك، وما استُجْلِبَ خيرُ الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجْلِبَ حرمانُهما بمثل قلة الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، وانظر إلى الإخلال به مع الأم تأويلاً وإقبالاً على الصلاة كيف امتُحن صاحبُه بهدم صومعته وضربِ الناس له ورميه بالفاحشة، وانظر أدب الصديق رضي الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة: أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده فكان ذلك التأخر إلى الخلف سعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء.

فمن حالفه الأدب حالفه التوفيق، ومن خالف الأدب خالفه التوفيق.

وأحب هنا أن أسرد عليك خمسة آداب عامة مع الخلق لتقيس عليها وتبحث عن أمثالها لتكون في سيرك إلى الله شامة بين الناس:

1- أدب دخول الدار: إذا دخلت دارك أو خرجت منها، فلا تدفع بالباب دفعاً عنيفاً، ولا تدعه ينغلق لذاته بشدة وعنف، فإن هذا منافٍ للطفِ الإسلام.

وإذا دخلت بيتك أو خرجت منه، فسلِّم على مَن فيه بصوت مسموع بين الجهر والإسرار (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، قال أنس رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**يا بُنيَّ إذا دخلتَ على أهلك فسَلم، يكون بركةً عليك وعلى أهلك**» [رواه الترمذي].

وإذا دخلت دارك، فأشعِر مَن فيها بدخولك قبل وصولك إليهم، لئلا يرتاعوا بمفاجئتك، أو تكون كالمتخوِّن الفاحِصِ لهم.

قال أبو عُبيدة بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: كان أبي – عبد الله بن مسعود – إذا دخل الدار استأنس– أي أشعر أهلها بما يؤنسهم – وتكلَّم ورفع صوته حتى يستأنسوا.

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (إذا دخل الرجل بيته، أُستُحِبَّ له أن يتنحنح أو يحرك نعليه).

وقالت زينب زوجة عبد الله بن مسعود: (كان عبد الله إذا دخل تنحنح وصوَّت).

وإذا دخلت دارك وكان بعض أهلك قارَّاً في غرفته الخاصة، وأردت الدخول عليه فاستأذن، لئلا تراه على حال لا يحب أو لا تحب أن تراه عليها، سواءٌ كان من الحلائل أو من المحارم.

روى الإمام مالك في (الموطأ)، عن عطاء بن يسار مرسلاً: أن رجلاً سأل رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فقال: أستأذِنُ على أُمي؟ فقال: «**نعم**»، فقال الرجل: إني معها في البيت، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: «**استأذِنْ عليها**»، فقال الرجل: إني خادمها، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم: «**استأذِنْ عليها، أتحب أن تراها عريانة؟!**» قال: لا، قال: «**فاستأذِنْ عليها**».

وقال نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم – أي مبلغ الرجال – عزله – أي أفرده عن حجرته – فلم يدخل على ابن عمر إلا بإذن.

وقال جابر رضي الله عنه: (يستأذن الرجل على ولده وأمه وإن كانت عجوزاً، وأخيه وأخته وأبيه).

2– أدب الدخول على غيرك: إذا طرقت باب أحد تقصده، فدُقَّ الباب دقاً رفيقاً يعرِّفه وجود طارق بالباب، ولا تدقه بعنف وشِدَّة كَدَقِّ الظلمة والزبانية فتروعه وتخل بالأدب.

جاءت امرأة إلى الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه، لتسأله عن شيء من أمور الدين، ودقت الباب دقاً فيه بعض العنف، فخرج وهو يقول: هذا الشُرَط – جمع شرطي –.

وقد كان الصحابة يقرعون باب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأظافر. [رواه البخاري في الأدب المفرد] أدباً منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وينبغي أن تجعل بين الدقتين زمناً غير قليل، ليفرغ المتوضىء من وضوئه في مهل، ولينتهي المصلي من صلاته في مهل، وليفرغ الآكل من لقمته في مهل.

وإذا طرقت ثلاث مرات متباعدة، ولم يُجِب فانصرف، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف» [رواه البخاري ومسلم].

ولا تقف عند استئذانك أمام فتحة الباب، ولكن خذ يُمنة أو يسرة، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبله من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر. [رواه أبو داود]

وإذا طرقت باب أحد من إخوانك، فقيل لك: من هذا؟ فقل: فلان باسمك الصريح الذي تُعرَف به، ولا تقل: واحد، أو أنا، أو شخص، فإنَّ هذه الألفاظ لا تفيد السائل من خلف الباب معرفة بالشخص الطارق.

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فدققت الباب، فقال لي: «من هذا؟» فقلت: أنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أنا؟!» كأنه كرهها.

3- أدب قبول الاعتذار: إذا زرت أحد إخوانك من دون موعد، أو على موعد سابق، فاعتذر لك عن قبول زيارتك له، فاعذره، فقد يكون جَدَّ لديه مانع من الموانع الخاصة، أو حصل عنده من الحرج مالا يسمح له باستقبالك وقتئذ.

قال التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي: (ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن لك حاجات، ولهم أشغالاً، وإنهم أولى بالعذر).

وكان الإمام مالك يقول: (ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: 28].

4- أدب الجلوس في دار غيرك: عندما تزور بيت أخيك حافظ على بصرك من أن يقع على داخل الدار أو عورة فيها، فإن ذلك عيب وإساءة.

وكن لطيفاً في مدخلك ومخرجك، غاضّاً طَرفك وصوتك، واخلع حذاءك في محله، وصُفَّ نعليك أثناء خلعهما، ولاتدعهما هكذا وهكذا.

وقبل الدخول انظر في نعليك، فإذا رأيت فيهما شيئاً من آثار الطريق فأمطه عنهما، وادلكهما في الأرض لينزاح عنهما ما علق بهما، فإن الإسلام دين النظافة واللطافة.

ولا تنازع مضيفك في المكان الذي يجلسك فيه من منزله، بل لا تجلس إلا حيث يجلسك، فلعلك – إن جلست كما تريد– تجلس إلى مكان فيه إطلال على عورة من عورات الدار، أو فيه إحراج لساكنيها.

وإذا جلست في دار غيرك أو مكتبِه فلا تفتح مغلقا من خزانة، أو صندوق، أو محفظة، أو حاسب، أو هاتف، أو شيء مستور، فإن هذا خلافُ أدب الإسلام والأمانة التي خولك بها أخوك.

5– أدب اختيار وقت الزيارة ومدتها: إذا زرت صديقك أو قريبك فاختر الوقت المناسب للزيارة والمدة المناسبة لها لكي لا تثقل عليه، فلا تأت في وقت غير ملائم لزيارته، كوقت الطعام أو النوم أو الراحة أو السكون، ولا تطل الزيارة فتثقل عليه، ولا تكثر منها فيزهد بك.

أقلل زيارتك الصديق يراك كالثوب استجده

إن الصديق يمله ألا يزال يراك عنده

ومن طُرَف الزيارات أن جماعة من الثقلاء زاروا مريضاً، فأطالوا الزيارة حتى أتعبوه، فقال لهم: قوموا فقد شفى الله مريضكم.

وزار آخرون عالماً في مرضه فأطالوا الجلوس حتى آذوه، ثم قالوا إن رأيت أن تدعو الله لنا فإن دعاء المريض مجاب، فمد يده فقال: اللهم علمنا أدب عيادة المريض.

أيها الإخوة:

هذه طائفة من الأدب مع الخلق، واذكروا أن أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره.

هذا، وينفع في اكتساب الأدب الإكثار من ذكر الله ومطالعة الكتاب والسنة وصحبة أهل الأدب.

نسأل الله أن يرزقنا الأدب معه سبحانه، ومع أنبيائه ورسله، ومع سائر خلقه.

اللهم أدبنا بآداب رسولك وخلقنا بأخلاقه وجملنا بصفاته وحققنا بمتابعته.

والحمد لله رب العالمين